2024 تموز | مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية | العدد 6
July 2024 | Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences | No. 6
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

الحراك السياسي لفقهاء الشيعة الامامية في العراق للمدة (656/737هـ)

م. م عمار ياسر عبد ناصر العامري
المديرية العامة للتربية ــ محافظة المثنى/ العراق
Ammaralamiree@gmail.com

الملخص:

نتيجة الظروف القاهرة التي مارستها السلطات الظالمة ضد الشيعة خلال عصور الحكم العباسي من القتل والابادة والتشريد، فقد ابتعد فقهاء الشيعة عن ممارسة أي دور سياسي او اداري ضمن نطاق السلطة الحاكمة الا ما ندر، على اعتبار إن نظرتهم الفقهية للدولة انها (غصبية)، وعلى الرغم من الضغوط التي مارسها أواخر الخلفاء العباسيين على بعض فقهاء الشيعة في العراق من أجل تولي مناصب تشريفية لكن الرفض لها كان حاضر، حتى جاءت الدولة المغولية (الايلخانية) التي استثمر الفقهاء الظروف الجديدة من أجل الولوج في الحراك السياسي، فقد كان للسيد ابن طاووس والعلامة الحلي الدور الكبير في اقناع الامراء الايلخانيين في تغيير منهجهم الفكري، سيما بعد إن تحولوا إلى الدين الإسلامي وصاروا على مذهب (التشيع)، واعلانهم تشيع الدولة رسمياً، وما صاحبها من قرارات عزز قدرة الشيعة وقوتهم في الدولة والسلطة، ما سمح لفقهاء الشيعة من الابتعاد عن الفكر السائد وهو (الانتظار السلبي) والتحول نحو طرح نظرية جديدة في الفكر السياسي الشيعي وهي (نظرية النيابة عن المعصوم) في دلالة إن الفقيه الشيعي الامامي ينوب عن الإمام الاثني عشر الغائب عن الابصار، فيما يراه مناسب لإدارة وتوجيه شؤون الشيعة تحت الأنظمة القائمة.

الكلمات المفتاحية: الشيعة، الايلخانية، النيابة، ابن طاووس، الحلي.

The political movement of the Imami Shiite jurists in Iraq for the period (656/737 AH)

A.L Ammar Yasser Abdel Nasser Al-Amiri
General Directorate of Education Al-Muthanna Governorate / Iraq

Summary

As a result of the compelling circumstances practiced by the unjust authorities against the Shiites during the eras of the Abbasid rule, including injustice, murder, and genocide, the Shiite jurists have shied away from exercising any political or administrative role within the scope of the ruling authority except what is rare, considering that their jurisprudential view of the state is that it is (usurpative), and despite The pressures exerted by the late Abbasid caliphs on some Shiite jurists in Iraq in order to assume honorary positions, but rejection of them was present, until the arrival of the Mongol (Ilkhanate) state, in which the jurists took advantage of the new conditions in order to enter the political movement. Sayyid Ibn Tawoos and the scholar Al-Hilli had the role The great thing in convincing the Ilkhanid princes to change their intellectual approach, especially after they converted to the Islamic religion and became the doctrine of (Shiism), and their official declaration of the state's Shiism, and the decisions that accompanied it strengthened the ability and power of the Shiites in the state and power, which allowed the Shiite jurists to move away from the prevailing

thought, which is (Passive waiting) and the shift towards proposing a new theory in Shiite political thought, which is (the theory of the representation of the impeccable), in the sense that the Imami Shiite jurist represents the Twelver Imam who is absent from sight, in what he deems appropriate for managing and directing Shiite affairs under the existing regimes.

Keywords: Shiites, Ilkhanate, Prosecution, Ibn Tawoos, Al-Hilli.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله تعالى على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً.

أدرك فقهاء الشيعة إن ابتعادهم عن الدخول في المعترك السياسي تحت سلطة الحاكم الظالم، كان له الأثر السلبي الكبير على أوضاع الشيعة، سيما في بغداد والمدن الاخرى، لما عاناه السكان من الظلم والتهميش؛ نتيجة الممارسات التي استخدمها الحكام ضدهم، وعلى الرغم من تحسن الظروف نوعا ما في العصر العباسي الاخير، الأمر الذي جعل بعض خلفاء ذلك العصر يتوجهون بالطلب إلى فقهاء الشيعة البارزين للتصدي في بعض المسؤوليات، ومنها (نقابة الطالبيين).

لكن بعد وصول جيش التتار إلى بغداد، كان من الضروري دخول الفقهاء على خط التوجيه وارشاد الأقوام الغازية، الأمر الذي خفف من معاناة الشيعة في العراق، كما أدى إلى الاعلان عن (تشييع الدولة والحكام الجدد)، بالأخص الأمير غازان ابن ارغون وأخيه اولجايتو، الذي غير اسمه لأسم اسلامي وهو (محمد خدابنده)، الأمر الذي فتح على الشيعة انفراج فكري كبير، حتى طرحت في تلك الحقبة نظرية (النيابة عن المعصوم) أحدى نظريات الفكر السياسي الشيعي، وايضا التخلي عن نظرية (الانتظار السلبي) السائدة آنذاك، وكانا من أبرز فقهاء ذلك العصر (علي بن طاووس والعلامة الحلي).

وقد قسم ابحث إلى مبحثين، المبحث الأول: تضمن أوضاع الشيعة عد سيطرة التتار على بغداد، وتشيع الدولة الإيلخانية، اما المبحث الثاني نضمن: نظرية النيابة عن المعصوم ودور كلا من علي بن طاووس والعلامة الحلي في الفكر السياسي الشيعي، اتبع الباحث المنهج السردي التاريخي والتحليلي للولوج إلى مضمار الدراسة فقهياً وسياسياً بالرغم من ندرة المصادر والمراجع، الا إن الضرورة تحتم علينا الوصول للهدف السامي الذي سعينا ونسعى لتحقيقه.

المبحث الأول:

أوضاع الشيعة بعد سيطرة التتار على بغداد

بعدما توجه التتار بحملاتهم وسراياهم نحو بغداد، لذا أوجس الخليفة العباسي المستعصم بالله (640-656ه/1242-1258م) خشية من فتك التتار بالمسلمين القاطنين في المناطق التي يصعب على الجيش الوصول إليها، أو في المناطق التي تضعف فيها خاصرة الدولة، فأختار الخليفة المستنصر السيد علي ابن طاووس موفداً عن الخلافة إلى سلطان التتار القادم نحو بغداد؛ وذلك من أجل تسوية الأزمة السياسة بين الدولتين (الدولة الإسلامية والدولة المغولية) بطريقة سلمية[1]، لكن السيد ابن الطاووس رفض الوفادة؛ لأنه يخشى من نجاح مهمته، وأن ذلك

يجعل منه رسولاً دائماً للدولة العباسية، فيما تشتمل خشية من الفشل تأثيراً على المستويين السياسي والاجتماعي، وهو خسارة لمكانته الاجتماعية والسياسية[2].

بعدها قدم ابن طاووس مبادرة جديدة بإن يسند قيادتها إلى نفسه من أجل الاضطلاع بمهمة تسوية الأزمة مع التتار، الذين تتابعت حملاتهم على العراق، وقد وصلت سراياهم سنة (635هـ/1237م) إلى بغداد، ما جعل السيد علي ابن طاووس يكتب إلى الأمير جمال الدين قشمر المتوفى (637هـ/1239م) قائد الجيش العباسي المكلف بالتصدي جيش التتار[3]، يطلب منه استصدار إذن من الخليفة له بالوساطة لتسوية المشكلة سلمياً لكن الخليفة رفض الطلب[4].

لم يمضِ الشهر الأول من سنة (656هـ/1258م) حتى انهارت الخلافة العباسية[5]، بعد أن قُتل الخليفة العباسي المستعصم، وعدد كبير من أفراد عائلته على يد جيش التتار، فيما راح نحو (800) ألف نسمة ضحية الهجمات المسلحة للتتار على مدينة بغداد وحدها، إن هذه الانتكاسة للخلافة العباسية، وانهيارها بهذه الصورة المأساوية على يد التتار أحدثت انكسارات متواصلة في مدى تاريخ الأمة الإسلامية فيما بعد، ما أشاعت أجواء اليأس والقنوط في كل أرجاء البلاد الإسلامية، وبعد سقوط وتدمير واستباحة بغداد التي كانت تعد قلب الخلافة الدينية وعاصمة الدولة السياسية، وقتل الخليفة رأس الدولة، لم تعد الأقاليم الأخرى محصنة، ولم يشعر سكانها بالأمن والسلامة بعد ذلك، مما حمل الكثير منهم على اللجوء للفرار من القتل والسلب والنهب[6].

إذ دعا هذا الأمر سكان مدينة الحلة الذين بلغهم خبر جرائم جيش التتار في بغداد، واستعدادهم لمواصلة الزحف على المناطق الأخرى، وينقل المؤرخ ابن الفوطي (1244-1323م): (بعد خبر نزوح أهل الحلة إلى البطائح، حضر أكابرهم من العلويين والفقهاء مع مجد الدين ابن طاووس العلوي إلى حضرة السلطان، وسألوه حقن دمائهم فأجاب سؤالهم وعين لهم شحنة فغادروا إلى بلادهم، أرسلوا إلى من في البطائح من الناس يعرفونهم ذلك فحضروا بأهلهم وأموالهم وجمعوا مالاً عظيماً وحملوه إلى السلطان فتصدق عليهم بنفوسهم)[7].

ويذكر ابن الفوطي أيضاً: (إن السيد ابن طاووس وجماعة من الفقهاء وابن أخيه مجد الدين محمد أخذوا الأمان من هولاكو لأهل الحلة والكوفة والنجف وكربلاء من القتل، إذ توجهوا إلى بغداد سنة (656هـ/1258م)، وأهدى السيد مجد الدين مؤلفه كتاب (البشارة) إلى هولاكو، فأعطاهم الأمان ورد إلى مجد الدين محمد النقابة -في مناطق-الفرات، ولم تطل أيامه في النقابة وتوفي في نفس السنة)[8].

تشيع الدولة الإيلخانية

تولى غازان بن أرغون عرش الدولة الإيلخانية في الأول من شهر جماد الأول (695هـ/1295م)، وما إن تولى العرش حتى بات أمر تشيع الدولة نقطة تحول في تاريخ الدولة الايلخانية المغولية؛ لأنه عندما تقلد الحكم أعلن اعتناقه الدين الإسلامي، فأنتشر الإسلام بين الإيلخانين، وكان تحول غازان إلى اعتناق الإسلام نهائياً بات أمراً ضرورياً لاستمرار حكم الدولة المغولية القائمة وسط الدولة الإسلامية، أصدر غازان بعد استلامه العرش الإيلخاني، مراسيم عديدة أهمها[9]:

1. ما نص على جعل الإسلام ديناً رسمياً للدولة.
2. إجراء الآداب والفعاليات على وفق الشريعة الإسلامية.
3. أعلن عن إحقاق العدل والأمن للسكان.
4. الحيلولة من دون إلحاق الأذى والضرر بالأمة.
5. أمر تحويل المعابد إلى مساجد، وأعاد الحقوق الإسلامية السابقة إلى أصحابها.

وبذلك بات إسلام غازان مساوي مع من جاء بعده من الخلفاء الهوة التي كانت تفصل رجال الحكم ورعايا الدولة بسبب الاختلاف الديني، وإن من أبرز مظاهر هذه الصلة[10]:

1. جولاته في زيارة مراقد الأئمة المعصومين في مدينتي النجف وكربلاء.
2. إنشائه دور لإحفاد النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) في مدينة تبريز.
3. صرف المرتبات لهم، وتميزت سنين حكمه بتقربه إلى التشيع أيضاً.

لكن بعدما ازدادت أوضاع غازان الصحية سوءاً، توفي في (11 شوال 703هـ/ 17 أيار 1304م)، ولم يتجاوز العقد الثالث من العمر، أوصى بولاية العهد لأخيه أولجايتو، وأمر رجال الدولة من الأمراء والوزراء وسائر الرعايا على تنفيذ القوانين والفرمانات -قرارات-التي أصدرها وعدم تجاوزها، ودعا للعمل على تقوية الدين الإسلامي ورفعة شأن المسلمين في دولته، جلس أولجايتو على عرش الدولة الإيلخانية، في (15 ذي الحجة 703هـ/19 تموز 1304م)، واتخذ لنفسه اسماً إسلامياً فارسياً هو (**محمد خدابنده**) أي (**محمد عبدالله**)[11].

اعتنق محمد خدابنده في بادئ الأمر الدين الإسلامي على المذهب الحنفي، ثم تحول إلى المذهب الشافعي، الأمر الذي دفع أئمة الحنفية إلى الحنق عليه، ما كان له تأثير سلبي، فانتهز الكهنة البوذيون هذه الانتقال العقدي، وأشاروا على خدابنده بترك الديانة الإسلامية والارتداد إلى دين آبائه مرة آخرى، لكنه رفض ذلك[12]، واستجاب لدعوة أحد رجال بلاط حكمه، بأن يتحول إلى مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، رفض خدابنده في بادئ الأمر[13]، أن يصبح شيعياً يخالف المذاهب الآخرى؛ لكنه اقتنع فيما بعد برأي جمال الدين بن مطهر الحلي، فاعتنق خدابنده المذهب الشيعي، فتحول الأخير إلى الالتزام بمنهج وفكر المدرسة الجعفرية، واقتدى به رجال الدولة المغولية، وأمر باعتناق الناس من ملته التشيع[14].

من أهم الخطوات التي اتخذها السلطان محمد خدابنده بعد تسلمه زمام الحكم عقده الحوارات بين فقهاء المسلمين على اختلاف مذاهبهم الذين اختارهم من شتى ارجاء الدولة[15]، وهذا دليل على أنه نشأ معتقداً بعقائد التشيع، ومبادراً للدعوة إليها، وكان الحماس الذي يتميز به السلطان خدابنده، بإعلانه التشيع ما دعاه إلى وضع حلاً لمشكلة أيديولوجية تتعلق بهويتهم ودورهم في بلاد الإسلام[16]، وأمر السلطان خدابنده أهل بغداد وشيراز والمدن الأخرى بالتالي[17]:

1. تغيير صيغ خطب الجمعة لتتفق مع أحكام مذهب التشيع.
2. عدم تلاوة أسماء الخلفاء في الخطبة.
3. إبقاء اسم الإمام علي بن أبي طالب والأئمة الاثني عشر (عليهم السلام) فقط.
4. ضرب نقود نقش عليها أسماء الإمام علي وابنائه وبقية الأئمة (عليهم السلام).

نجد إن الروح التي سرت في جسم السلطان غازان كشفت بعد إن تقلد أخيه محمد خدابنده خان الحكم أنها روح شيعية، والفرق بين الحاكمين؛ أن الأول: لم يعلن المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للبلاد لطموحه إلى مزيدٍ من الفتوحات، ورغبته في فتح مصر وبلاد الشام، في حين أن الثاني (أخاه) تمكن من إعلان التشيع رسمياً في أرجاء الدولة المغولية، وبهذه الخطوة خلق رأياً شيعياً يدعم الدولة الإيلخانية في موقفها تجاه صراعها مع الممالك (ذات المذهب السني)، الذين حكموا سوريا بعد سقوط الدولة الأيوبية سنة (648هـ/1250م)[18].

سمح المغول باعتناق التشيع، وباتوا بعد تشيعهم قادرين على التشكيك في مشروعية كل الحكومات الإسلامية السنية، وتحقيق نظرية سياسية جديدة في الدولة الإسلامية، يكون فيها الخلفاء السابقون بما فيهم العهد الراشدي باستثناء خلافة الإمام علي (عليه السلام) مروراً بالخلفاء الأمويين وانتهاء بالخلفاء العباسيين هم حكاماً غير شرعيين، وإن هؤلاء الحكام قد صادروا حق

أهل البيت (عليهم السلام)، وهذه رؤية مطابقة لرؤية السيد ابن طاووس نفسها، حين رفض تولي الوزارة في خلافة المستنصر[19].

نجح الايلخانيون كذلك في تحريك الأجواء الساكنة في الأوساط الشيعية، وأطلقوا العنان للشيعة في استعادة أملاً كان مفقوداً لمدة طويلة، فالمغول في مزاعمهم أنهم يحققون الحلم الشيعي بالقضاء على الخلافة العباسية، واستعادة الحقوق المغتصبة، ويمكن توضيح الموقف الشيعي من المغول الايلخانيين في نقاط محددة[20]:

1. إن لم ينحدر الا الايلخانيين من الخط الاغتصابي للخلافة وامتداداتها المناهض لأهل البيت (عليهم السلام)، وبالتالي فهم ليسوا اعداء الشيعة والتشيع، إنما حلفاء وشركاء في المذهب.
2. انهم جاءوا لتحقيق الحلم الشيعي الثائر لآل البيت النبوي، واستعادة حقوق الشيعة المغتصبة.
3. انهم يحققون صدق العقيدة الشيعية القائلة بظهور دولة ممهدة لظهور الإمام المهدي (عليه السلام)، كما تهيأ ذلك لابن طاووس الذي وجد في إقبال الحكومة المغولية عليه وعلى فقهاء الشيعة وإطلاقها لسراحهم في الإرشاد، وإجراء بعض الأحكام.
4. ورود خبرهم على لسان الإمام علي (عليه السلام)، واشتمل الخبر على أوصافهم، ونتائج هجومهم على بغداد، والتحذير من اعتراض طريقهم.

بعد هذا التحول للمغول نحو التشيع، والمناخ التحرري الذي عاشه فقهاء الشيعة في تلك المدة، توافرت لدى الاتجاه التجديدي الشيعي حوافز مشجعة لاستئناف فعاليات التجديد في مجالي الفقه والعقائد، سيما الدور الذي قام به الخواجة نصير الدين الطوسي في تشجيع المباحث الكلامية في مدرسة الحلة، ودور ابن إدريس في تنشيط الحركة الأصولية والفقهية[21].

فأفتح الباب لنبوغ رجال فقه مجددين في الدولة الإيلخانية، إذ شهد المذهب الشيعي في تلك الفترة انتعاشاً فقهياً، وهذا الانتعاش الذي تأكد بعد الفرمان -القرار-الذي أصدر بالأمان لأهل الحلة والمدن الشيعية المقدسة في العراق، وانتقل على أثره معظم فقهاء الشيعة إلى الحلة ليستوطنوها، التي بدأت تشهد نشاطاً علمياً تجديدياً، إذ جرى تنقيح الفقه الشيعي والتجديد بآلياته[22].

المبحث الثاني:

نظرية النيابة عن المعصوم:

بعد وصول الدولة الايلخانية للحكم (656-737ه/1258-1335م)، تميّز النشاط الفكري للشيعة بتجديد فكري أصولي، والذي مثلته مدرسة الحلة العلمية الشيعية، وكان أبرز روادها المحقق الحلي والعلامة الحلي، إذ سعت هذه المدرسة إلى اعلاء شأن العقل في الاجتهاد بالمسائل العقائدية والسياسية لمواجهة التطور الذي نتج عن أسلمة سلاطين الدولة الايلخانية، وتحول بعضهم نحو التشيع، وإعلانه مذهباً رسمياً للدولة[23].

أثر هذا تحول على مسار الفكر السياسي الشيعي، إذ تمثل بالاعتراف بشرعية الدولة الايلخانية، والتخلي ضمناً عن نظرية (**الانتظار السلبي**) تدريجياً لصالح الواقعية السياسية التي تستند إلى الفصل بين (الشرعية الدينية والشرعية السياسية)، **فالأولى:** هي الشرعية الدينية، وحسب رأي العلامة الحلي محصورة بالإمام المعصوم من دون سواه، **والثانية:** وهي الشرعية السياسية فأنها تعود إلى السلطة القائمة التي تكتسب شرعيتها من الأمر الواقع.

وبناء على ذلك يضفي العلامة الحلي الشرعية على السلطة الايلخانية، داعياً إلى نصرة الدولة وخلود حكمها إلى يوم القيامة[24].

دور علي بن طاووس في الفكر السياسي الشيعي

هو السيد رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس المشهور بـ(**السيد ابن طاووس**) ولد في الحلة (589-664هـ/ 1193-1265م)، يعد من كبار فقهاء الشيعة، وصاحب المصنفات الكثيرة، تتلمذ على فقهاء الشيعة الكبار منهم؛ العلامة الحلي، توجه السيد ابن طاووس إلى مدينة الكاظمية سنة 625هـ، فتزوج هناك، وأستقر في بغداد مدة خمسة عشر عاماً قضاها بالتدريس[25].

تعرض السيد ابن طاووس لضغوط من قبل الحكومة العباسية تحثه على تسنم بعض المواقع الحكومية، إذ رفض طلب المستنصر العباسي للتصدي للوزارة أو نقابة الطالبيين، متعذراً بأن العمل على وفق رغبات الخليفة يؤدي الى إخلال بالعلاقة مع الله تعالى، ولعل ابن طاووس أراد أن يوصل رسالة غير مباشرة للخليفة: (**إن الحكم العلوي لابد أن يكون بهذه الطريقة خلافاً لطريقة غيرهم من الحكم**)[26].

اضطر لترك بغداد والرجوع إلى الحلة، وبعد القضاء على الخلافة العباسية في بغداد، أبقت الدولة المغولية نقابة الطالبيين في عائلة آل طاووس، وعرضت ولاية النقابة على السيد ابن طاووس سنة (661هـ/ 1262م)، وكان وقتها في الحلة فعاد إلى بغداد، وتسنم النقابة إلى أن وافاه الأجل يوم الاثنين المصادف للخامس من ذي القعدة سنة (664هـ/1265م)، وقال أبن الفوطي في (الحوادث الجامعة): (وأنه ولي نقابة الطالبيين بالعراق في (661هـ/1262م) ثم بقت ولاية النقابة في خلفه)، ثم تولاها ابنه الأكبر صفي الدين محمد الملقب بـ(المصطفى) المتوفى (680هـ/1281م)، الذي نصحه والده ابن طاووس بالعديدة من النصائح والتحذيرات من مخالطة الحكام أو قبول ولايتهم، ثم تولى النقابة بعد موته أخوه الاصغر رضي الدين علي ثم تولاها ابناؤه من بعده[27].

إن ابن طاووس جلس في مرتبة خضراء بدلاً من مرتبة سوداء، وهو اللون المعروف للعباسيين، وهو يعادل اليوم العلم الوطني للدولة، وكان استبدال اللون الاصلي بلون آخر يعني إقراراً بمشروعية الدولة الجديدة تقريباً، وكان الناس بعد دخول هولاكو إلى بغداد رفعوا السواد، ولبسوا لباس الخضرة، وهو لون العلويين الشيعة[28]، ولا شك، إن للألوان في هذه الفترة دلالة رمزية على المرتبة التي ينالها شخص بعينه.

ولما لنقابة السادة الطالبيين آنذاك من أهمية بوصفها من المناصب التي لا بد أن يتمتع من يترأسها بمؤهلات علمية واجتماعية رفيعة، فضلاً عن أحاطته بعلوم الفقه الإسلامي؛ لما يقع على النقيب من إدوار كبرى في الشؤون القضائية والاجتماعية والأخلاقية يوجب إيجاد الحلول لها، ناهيك عن مد يد العون للفقراء والمعوزين من شيعته، من هنا ذهب أعلام الشيعة كالشيخ المفيد إلى القول: (**أن نقيب الطالبيين يُفوض إليه من قبل الإمام الحجة (عليه السلام) لا من قبل الظالمين والجبابرة ولا من أي موقع اجتماعي أو سياسي آخر**)[29].

إن المكانة الدينية والاجتماعية التي تمتع بها ابن طاووس كونه ينحدر من السلالة الهاشمية، فضلاً عن نيله شرف الانتساب للبيت النبوي والنسب العلوي، إلى جانب الثقل العلمي والاجتماعي الذي يحظى به، مكنه من تولي شؤون نقابة الطالبيين، والزعامة الروحية في الدولة الايلخانية المغولية.

دور العلامة الحلي في الفكر السياسي الشيعي

هو الحسن بن يوسف بن زين الدين علي بن محمد بن مطهر، المشهور بـ(**العلامة الحلي**) ولد في الحلة (648- 726هـ/1250-1325م)، ونشأ وحظي بعناية كبيرة من أبيه، الذي كان يعد

من كبار فقهاء عصره، فتلقى منه الفقه والأصول والعلوم العربية والشرعية، ودرس على يد خاله الفقيه المحقق الحلي[30].

كان عصر العلامة الحلي حافلاً بالإثارة، والازدهار العلمي، ولأهمية دوره العلمي في المؤسسة الدينية، وفاعليته في توجيه السلطة السياسية وترشيدها، اشتهر بألقاب لم يعهد إطلاقها على غيره من قبل، مثل: (آية الله، العلامة، والإمام)، ونظراً لتفرد دور العلامة الحلي وسعة نتاجه العلمي، أصبح عصره في اصطلاح الفقهاء الذين جاؤوا بعده (**فاصلاً بين مرحلتين زمنيتين في تاريخ الشيعة**)، فأطلق على الفقهاء الذين سبقوا عصره بـ(**المتقدمين**)، وعلى الذين جاؤوا بعده بـ(**المتآخرين**)[31].

إن أهم ما يميز حياة العلامة الحلي السياسية، جهوده في إعلان السلطان الايلخاني محمد خدابنده التشيع كمذهب رسمي للدولة، إذ أن خدابنده دعا فقهاء المذاهب الإسلامية كافة، ومن مختلف المناطق الإسلامية إلى البلاط لمناقشة الموضوعات الجدلية المختلف عليها بينهم، وكانت إحدى هذا المناظرات جرت بين الفقيه نظام الدين عبدالملك المراغي الشافعي والعلامة الحلي[32].

بعد انتهاء المناظرة، وبيان أحقية مذهب الشيعة، خطب العلامة الحلي خطبة بليغة، يبدو أنها كانت مقدمة لإعلان السلطان الايلخاني عن تشيع الدولة رسمياً، واختلف المؤرخون في تحديد سنة الإعلان الرسمي لتشيع الدولة، ويذكر أن العلامة توجه إلى تبريز سنة 705ه/1305م تقريباً لزيارة بلاط خدابنده الذي اعترف بأحقية المذهب الشيعي، وقرر السلطان سنة 708ه/1308م ضرب أسماء الأئمة المعصومين (عليهم السلام) على نقود البلاد[33]، وأمر في السنة نفسها بإدخال أسمائهم في خطبة الصلاة، وأسقاط أسماء الخلفاء الثلاثة منها[34]، وأمر الخطباء الا يذكروا في خطبهم سوى الإمام علي (عليه السلام)[35].

وبعد اعلان التشيع الرسمي للدولة، انبرى السلطان خدابنده إلى نشر التشيع في أرجاء البلاد، وأوكل للعلامة الحلي إنشاء (**مدرسة سيَّارة**) لتعليم العلوم الإسلامية، وتشتمل المدرسة على التجهيزات والمعدات الضرورية كافة من خيام وأمتعة وكتب ومبلغين، فكانت تطوف المدن، وتنتقل من إقليم أذربيجان صيفاً إلى بغداد شتاءً، وكان السلطان خدابنده يشارك بنفسه في هذه المهمة مصطحباً العلامة الحلي معه، الذي أصبح مقرباً من السلطان، وخصه بالعطايا، وأقطعه له مدن كثيرة، ونصبه عميداً للمدرستين[36].

وذكر ابن بطوطة في رحلته: (إن ملك العراق السلطان محمد خدابنده صحبه فقيه من الروافض (الشيعة) يسمى جمال الدين بن المطهر، فلما أسلم السلطان، وأسلمت التتار زاد في تعظيم هذا الفقيه، فزين له مذهب الروافض (التشيع) وفضله على غيره، وقرر لديه أن أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأن علياً ابن عمه وصهره فهو وارث الخلافة)[37].

شرع السلطان في مدح العلامة، ويقول ابن الفوطي: (غير انه سلك السلف سبيلاً فاللازم على الخلف إن يسلكوا سبيلهم لإلجام العوام، ودفع تفرق كلمة الإسلام ويستر زلاتهم ويسكت في الظاهر من الطعن عليهم ودخل السلطان وأكثر أمرائه في ذلك المجلس في مذهب الإمامية، وأمر السلطان في تمام ممالكه بتغيير الخطبة وإسقاط الخلفاء الثلاثة السابقين عنها، وبذكر أسماء أمير المؤمنين وسائر الأئمة على المنابر، وبذكر حي على خير العمل في الآذان، وبتغيير السكة ونقش الأسماء المباركة عليها، وأقر التشيع مذهباً للدولة المغولية)[38].

شرع العلامة الحلي بتأليف مؤلفات عديدة نزولاً عند رغبة السلطان خدابنده، وأهم تلك المؤلفات الكتاب الأول: (نهج الحق وكشف الصدق)، والكتاب الثاني: (منهاج الكرامة في

معرفة الإمامة)، فأهداهما الحلي إلى السلطان، فصارا مورداً للتقرب والتودد، ونظراً ما تميز به هذان الكتابان من أبعاد سياسية، وإذ كان نصيبهما من بين كتبه الأكثر مناقشة وجدلاً، ويبدو أن هذين المؤلفين كتبا بعد إعلان خدابنده التشيع في البلاد، فأن العلامة ألف كتاب (نهج الحق وكشف الصدق) في الأشهر الأولى لتولي السلطان مقاليد الحكم، واشتمل على مباحث في عقائد الشيعة (التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والميعاد)، ومختصر أصول الفقه، إذ رد عليه بوقتها فقهاء الشافعية[39].

أما كتاب (منهاج الكرامة في الامامة) كان مؤثراً في حسم السجالات الدائرة آنذاك بين الشيعة وجماعة من أهل السنة على مذهب الحنابلة، ما دعا معاصره ابن تيمية للرد عليه في كتاب سماه (منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال)، إذ ورد في مقدمته وصف لكتاب (منهاج الكرامة) والظروف السياسية في تلك الفترة، ويقول فيها: (احضر إلى طائفة من أهل السنة والجماعة كتاباً صنفه بعض شيوخ الرافضة في عصرنا، يدعو به إلى مذهب الرافضة الإمامية...)[40].

ومن الجدير بالذكر، أن معظم المصادر الشيعية أخفت الصلة الحقيقية بين العلامة الحلي والسلطان خدابنده، وبينت أن دوره كان مقتصراً على الصلة الدينية البحتة في دعوة الايلخانين إلى مذهب التشيع في محاولة لسلخ الجانب السياسي عن هذه الصلة تنزيها للعلامة من الدخول فيها[41].

الخاتمة:

١. المكانة المرموقة لفقهاء الشيعة في العمل السياسي على الرغم من ابتعادهم عن استلام المناصب الحكومية، وهذا ما حدث مع السيد علي بن طاووس عميد الطالبين قبيل وبعد سقوط بغداد على يد المغول.

٢. نجاح فقهاء الشيعة في حقن دماء ابناء المناطق الشيعية، وتحديداً في الحلة وكربلاء والنجف من خطر تقدم التتار الى مدنهم، بعدما توجهوا إلى بغداد مستعطفين مقام السلطان.

٣. كان من أهم المبادرات الناجحة التي عمل عليها فقهاء الشيعة، اقناع السلطان غازان ابن ارغون اعتناق الاسلام، واعلان التشيع ديناً رسمياً للدولة، وما أصدره من مراسيم كان لها أثر كبير في منح الشيعة مساحة كبيرة من الحرية في إقامة شعائرهم، وممارسة حياتهم الدينية.

٤. كان لحادثة تشيع السلطان محمد خدابندة الا دليل على قوه فقهاء الشيعة في الحوار الدين المتسامح والمعتدل، الذي يدل على أحقيتهم في الدفاع عن عقيدتهم ومبادئهم الاسلامية، وما انعكس ذلك على دورهم الريادي في الفكر السياسي.

الهوامش:

[1] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص359.

[2] ابن طاووس، كشف المحجة، ص146.

[3] ابن طاووس، المصدر نفسه، ص147.

[4] فؤاد إبراهيم، الدولة الفقيه، ص131.

[5] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص360.

[6] ابن طاووس، المصدر نفسه، ص147.

[7] ابن الفوطي، المصدر السابق، ص360.

[8] ابن طاووس، بناء المقالة الفاطمية، ص18.

[9] محمد طقوش، تاريخ المغول، ص265.

[10] فؤاد الصياد، الشرق الاسلامي في عهد الايلخانيين، ص268.

[11] محمد طقوش، تاريخ المغول، المصدر السابق، ص297.

[12] فؤاد إبراهيم، المصدر السابق، ص151.

[13] فؤاد إبراهيم، المصدر السابق، ص151.

[14] المصدر نفسه، ص158.

[15] القزويني، المصدر السابق، ص119.

[16] أبراهيم، ص158.

[17] القزويني المصدر نفسه، ص121.

[18] القزاز، الحياة السياسية، ص297.

[19] رشيد فضل الله، جامع التواريخ، ص416.

[20] فؤاد إبراهيم، المصدر السابق، ص161.

[21] محمد باقر السبزواري، كفاية الأحكام، ص45.

[22] عباس القمي، سفينة البحار، ج2، ص97.

[23] وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، ص39.

[24] ابن الحلي، منهاج الكرامة، ص1.

[25] القمي، الكنى والألقاب، ج1، ص341.

[26] بن طاووس، المصدر السابق، ص187.

[27] ابن الفوطي، المصدر السابق، ص381

[28] عباس القمي، المصدر السابق، ج1، ص340.

[29] المفيد، المقنعة، ص812.

[30] آقا الطهراني، طبقات الاعلام، ق 8، ص53.

[31] محسن أراكي، مقدمة كتاب (مجمع الفائدة)، ص15.

[32] الخوانساري، مشارق الشموس، ج2، ص279.

[33] القزويني، المصدر السابق، ص123.

[34] الأفندي، رياض العلماء، ج1، ص361.

[35] العزاوي، التاريخ العراق، ج1، ص409.

[36] جعفر خصباك، العراق في عهد المغول الايلخانيين، ص104.

[37] ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص204.

[38] ابن الفوطي، المصدر السابق، ص234.

[39] القزويني، المصدر السابق، ص129.

[40] ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، ج1، ص3.

[41] القزويني، المصدر السابق، ص141.

المصادر والمراجع:

1. إبراهيم، فؤاد، الفقيه الدولة الفكر السياسي الشيعي، ط1، بيروت، دار المرتضى، 2012.
2. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، حققه: (بشار عواد معروف، عماد عبدالسلام رؤوف)، ط1، قم، 1324هـ.ش.
3. الاردبيلي، احمد بن محمد، مجمع الفائدة والبرهان في شرح إرشاد الاذهان، (كتب المقدمة: الشيخ محسن اراكي)، ط1، قم، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، 1402هـ.
4. أفندي، عبد الله بن عيسى، رياض العلماء وحياض الفضلاء، قم، مطبعة الخيام، 1401هـ.
5. بن طاووس، جمال الدين ابي الفضل احمد بن موسى، بناء المقالة الفاطمية في نقض الرسالة العثمانية، ط1، قم، مؤسسة ال البيت "ع" لإحياء التراث، 1411هـ.
6. بن طاووس، علي بن موسى بن جعفر بن محمد، كشف المحجة لثمرة المهجة، ط1، النجف، المطبعة الحيدرية، 1950.
7. بيك، روملو حسن، أحسن التواريخ، ط1، طهران إيران، انتشارات بابك، ١٣٥٧هـ.ش.
8. الحراني، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط1، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1986.
9. الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر، منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، تحقيق: عبد الرحيم مبارك، ط1، قم، انتشارات تاسوعاء، 1379 هـ.ش.
10. خصباك، جعفر حسين، العراق في عهد المغول الايلخاني، ط1، بغداد، مطبعة العاني، 1968.
11. الخوانساري، حسين بن جمال الدين محمد، مشارق الشموس في شرح الدروس، ط1، قم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، 1402هـ.
12. السبزواري، محمد باقر، كفاية الفقه "كفاية الاحكام"، ج1، تحقيق مرتضى الواعظي الأراكي، ط1، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، 1423هـ.

13. الصياد، فؤاد عبد المعطي، الشرق الاسلامي في عهد الايلخانيين أسرة هولاكو خان، ط1، قطر، مركز الوثائق والدراسات الانسانية، 1987.
14. طقوش، محمد سهيل، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، ط1، بيروت، دار النفائس. 2007.
15. الطنجي، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي، أبو عبد الله (ابن بطوطة)، رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار)، ط1، بيروت، دار إحياء العلوم، 2014.
16. الطهراني، محمد محسن (آقا بزرك)، طبقات أعلام الشيعة، ج6، ط1، النجف، المطبعة العلمية، 1954.
17. العزاوي، عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، ج1، ط1، بيروت، مكتبة الحضارات، د.ت.
18. القزاز، محمد صالح داود، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، ط1، النجف، مطبعة القضاء، 1970.
19. القزويني، جودت، تاريخ المؤسسة الدينية الشيعية، ط1، بيروت، دار الرافدين للطباعة، 2005.
20. القمي، عباس، الكنى والألقاب، ط1، ج1، تقديم: محمد هادي الأميني، طهران إيران، مكتبة الصدر، 1398هـ.
21. القمي، عباس، سفينة البحار ومدينة الحكم والاثار، ط2، قم، دار الاسوة للطباعة والنشر، 1416هـ.
22. كوثراني، وجيه، الفقيه والسلطان، ط4، بيروت، المركز العربي للأبحاث، 2015.
23. المفيد، أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، المقنعة، ط2، قم إيران، مؤسسة النشر الإسلامي، 1410هـ.